



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية
الدراسات الأولية
للعام الدراسي ٢٠٢٥ - ٢٠٢٦

محاضرات السيرة النبوية

عنوان المحاضرة
مراحل الدعوة الإسلامية

من كتاب
(فقه السيرة النبوية)

المرحلة الثانية

مدرس المادة
أ.م.د. وسمي محمد احمد

مراحل الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ

مرت الدعوة الإسلامية في حياته عليه الصلاة والسلام ، منذ بعثته إلى وفاته بأربع مراحل :

المرحلة الأولى : الدعوة سراً ، واستمرت ثلاث سنوات .

المرحلة الثانية : الدعوة جهراً ، وباللسان فقط ، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة : الدعوة جهراً ، مع قتال المعتدين والبادئين بالقتال أو الشر ، واستمرت هذه المرحلة إلى عام صلح الحديبية .

المرحلة الرابعة : الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة أو امتنع عن الدخول في الإسلام - بعد فترة الدعوة والإعلام - من المشركين أو الملاحدة أو الوثنيين.

وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية وقام عليها ، حكم الجهاد في الإسلام .

الدعوة سراً

بدأ النبي يستجيب لأمر الله ، فأخذ يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام ، ولكنه كان يدعو إلى ذلك سراً حذراً من وقع المفاجأة على قريش التي كانت متعصبة لشركها ووثنياتها ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام يظهر الدعوة في المجالس العمومية لقريش ، ولم يكن يدعو إلا من كانت تشده إليه قرابة أو معرفة سابقة.

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء : خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وعلي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة مولاه عليه الصلاة والسلام ومتبنّاه ، وأبو بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص .. وغيرهم ، رضي الله عنهم جميعاً.

فكان هؤلاء يلتقون بالنبي ﷺ سراً ، وكان أحدهم إذا أراد ممارسة عبادة من العبادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش .

ثم لما أربى الذين دخلوا في الإسلام على الثلاثين - ما بين رجل وامرأة - اختار لهم رسول الله ﷺ دار أحدهم ، وهو الأرقم بن أبي الأرقم ، ليلتقي بهم فيها لحاجات الإرشاد والتعليم ، وكانت حصيلة الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة دخلوا في الإسلام ، عامتهم من الفقراء والأرقاء ومن لا شأن له بين قريش ^(١) .

العبر والعظات :

١ - وجه السرية في بدء دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ريب أن تكتم النبي الله في دعوته إلى الإسلام ، خلال هذه السنوات الأولى ، لم يكن بسبب الخوف على نفسه ، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ علم أنه رسول الله إلى الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس ، على أن الله عز وجل لو أمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً ، لما توانى عن ذلك ساعة ، ولو كان يتراءى له في ذلك مصرعه .

(١) راجع للتوسع في هذا البحث سيرة ابن هشام : ٢٤٩/١ - ٢٦١

ولكن الله عز وجل ألهمه - والإلهام للرسول نوع من الوحي إليه - أن يبدأ الدعوة ، في فترتها الأولى ، بسرية وتكتم ، وأن لا يلقي بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها ، تعليماً للدعاة من بعده ، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيلة والأسباب الظاهرة ، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها . على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده ، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره . فهذا يחדش أصل الإيمان بالله تعالى ، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام .

ومن هنا تدرك ، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام ، في هذه الفترة ، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً ، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً .

وبناءً على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية ، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيث التكتم والجهر ، أو اللين والقوة - حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه ، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية ، اعتماداً على واقع سيرته ﷺ ، ضمن الأشكال أو المراحل الأربعة التي سبق ذكرها ، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية .

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم ، إذا ما أجمعوا قتالهم ، فينبغي ، أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس ، لأن المصلحة المقابلة وهي مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع

ويقرر العز بن عبد السلام حرمة الخوض في مثل هذا الجهاد قائلاً :

« فإذا لم تحصل النكاية وجب الانهزام ، لما في الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام ، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ، ليس في طيها مصلحة» (٢) .

قلت : وتقديم مصلحة النفس هنا ، من حيث الظاهر فقط .

أما من حيث حقيقة الأمر وممراته البعيد ، فإنها في الواقع مصلحة دين ، إذ المصلحة الدينية تقتضي - في مثل هذه الحال - أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكي يتقدموا ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى . وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقترحوا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل .

والخلاصة : أنه يجب المسالبة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ، ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً ، ولا يجوز المسالبة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها ، ولا يجوز القعود عن جهاد الكافرين في عقر دورهم إذا ما توفرت وسائل ذلك وأسبابه .

٢ - الأوائل الذين دخلوا في الإسلام والحكمة من إسراهم إلى الإسلام قبل

غيرهم:

وتحدثنا السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام ، في هذه المرحلة ، كان معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء ، فما الحكمة في ذلك ؟ وما السر في أن تتأسس الدولة الإسلامية على أركان من مثل هؤلاء الناس ؟

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام : ٩٥/١ ، وانظر ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية للمؤلف : ٢٦١

والجواب : إن هذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى ، ألم تر إلى قوم نوح كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهائهم : ﴿ مَا نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي.. ﴾ [هود ٢٧/١١] . وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون أتباع موسى أذلاء مستضعفين ، حتى قال عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه : ﴿ وَأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧] . وإلى ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً ، كيف تولى عنه الزعماء المستكبرون ، وآمن به الناس المستضعفون ، حتى قال الله في ذلك : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥/٧ - ٧٦] .

والسر في ذلك ، أن حقيقة هذا الدين الذي بعث الله به عامة أنبيائه ورسله ، إنما هي الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده . وهي حقيقة تخدش أول ما تخدش ألوهية المتألهين وحاكمية المتحكمين وسطوة المتزعمين ، وتناسب أول ما تناسب حالة المستضعفين والمستذلين والمستعبدين ، فيكون ردّ الفعل أمام الدعوة إلى الإسلام الله وحده هو المكابرة والعناد من أولئك المتألهين والمتحكمين ، والإذعان والاستجابة من هؤلاء المستضعفين ، وانظر ، فإن هذه الحقيقة تتجلى لك بوضوح في الحديث الذي دار بين رستم قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية ، وربيعي بن عامر الجندي البسيط في جيش سعد بن أبي وقاص . فقد قال له رستم :

«ما الذي دعاكم إلى حربنا والولوع بديارنا ؟

فقال : جننا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ثم نظر إلى صفوف الناس الراكعين عن يمين رستم وشماله ، فقال متعجباً :

لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولكني لا أرى قوماً أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضاً ، ولقد ظننت أنكم تتواسون كما نتواسى ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب لبعض ...

فالتفت الدهماء المستضعفون إلى بعضهم يتهامسون : « صدق والله العربي » .

أما القادة والرؤساء فقد وجدوا في كلام ربعي هذا ما يشبه الصاعقة أصابت كيانهم فحطمته ، وقال بعضهم لبعض : « لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه »^(٣).

ولا يعني هذا الكلام أن المستضعفين الذين أسرعوا إلى الإسلام قبل غيرهم لم يكن دخولهم فيه عن إيمان بل عن قصد ورغبة في التخلص من أذى المستكبرين وسلطانهم . ذلك لأن الإيمان بالله وحده والتصديق بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، كان قدراً مشتركاً بين زعماء قريش ومستضعفيها ، فما منهم أحد إلا وهو يعلم صدق النبي ﷺ فيما يخبر عن ربه ، غير أن الزعماء والكبراء فيهم كانت تصدهم زعامتهم عن الانقياد والاتباع له ، وأجلى مثل على ذلك عمه أبو طالب . وأما الفقراء والمستضعفون فما كان ليصدهم عن التجاوب مع إيمانهم والانقياد له عليه الصلاة والسلام شيء . أضف إلى ذلك ما يشعر به أحدهم عند إيمانه بالوهمية الله وحده من الاعتزاز به وعدم الاكتراث بسلطان غير سلطانه أو قوة غير قوته . فهذا الشعور الذي هو ثمرة للإيمان بالله عز وجل ، يزيده في الوقت ذاته قوة ويجعل صاحبه في نشوة وسعادة غامرة .

ومن هنا نعلم عظم الفرية التي يفترها بعض محترفي الغزو الفكري في هذا العصر ، حينما يزعمون بأن الدعوة التي قام بها محمد ﷺ ، إنما هي من وحي بيئته العربية نفسها ، وأنها إنما كانت تمثل حركة الفكر العربي إذ ذاك.

(٣) انظر تفصيل هذه القصة في كتاب : إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ، تأليف محمد الحضري : ١٠٠

فلو كان كذلك ، لما كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها ، أربعين رجلاً وامرأة ، معظمهم من الفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء ، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلفي الأعاجم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي .

وسوف تجد في البحوث القادمة أن بيئته العربية نفسها هي التي أرغمته على الهجرة من بلاده وأرغمت أتباعه من حوله على التفرق هنا وهناك والخروج إلى بلاد الحبشة مهاجرين ، وذلك كراهية منها للدعوة التي زعموا أنه إنما كان يمثل بها نوازعها وأفكارها .

الجهر بالدعوة

قال ابن هشام : « ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من النساء والرجال حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدّث به . فأمر الله رسوله أن يصدع بما جاءه من الحق ، وأن ييادي الناس بأمره وأن يدعو إليه ،